كان كل منهما يسعى لرؤية ذاته في روح الآخر، وكلما قرأنا رسائلهما ازددنا يقينًا بأن الحب الذي شدَّ جبران إلى مي وشغف مي بجبران لهو حب عظيم، بل عشق يكاد يكون صوفيًّا لأنه تخطَّى حدود الزمان والمكان.

مي زيادة وجبران خليل جبران

عشق.. بلا أمل

يعتبر جبران خليل جبران من الأدباء الذين آثروا فن المراسلة عند العرب، حيث أنه ترك مخزونًا من الرسائل لفتت نظر الباحثين، أغرتهم بدراستها لسبر أغوار عالم جبران المليء بالأسرار.

كان جبران في مغارب الأرض مقيمًا وكانت مي في مشارقها، كان جبران يقطن بالولايات المتحدة الأمريكية، وكانت هي في القاهرة، نشأ حبهما ونما عبر مراسلات أدبية وفكرية وروحية ألفت بين قلبين وحيدين، وروحين مغتربين.

كان طبيعيًّا أن يتعارف بطلا هذا الحب عن طريق الفكر والنشر، بعد أن أصاب كل منهما شهرة كبيرة.

كانت مي معجبة بمقالات جبران وأفكاره فبدأت بمراسلته عقب اطلاعها على قصته (الأجنحه المتكسرة) التي نشرها في المهجر عام 1912م، كتبت له تعرب عن أعجابها بفكره وأسلوبه، وتناقش آراءه في الزواج وقيوده، والحب وأطواره حسب رؤيته في هذه القصة التي قرأتها له، وتعرض عليه رأيها في وجهة نظره في حرية المرأة التي طالب بها والتي اتفقت معه في جانب وعارضته في جانب آخر منها.

حيث قالت: "لايصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها أن تبحث عن صديق غير زوجها، فلا بد أن تتقيَّد المرأه بواجبات الشراكة الزوجية تقيُّدًا تامًّا حتى لو هي سلاسل ثقيلة، فلو توصَّل الفكر إلى كسر قيود التقاليد فلن يتوصَّل إلى كسر القيود

الطبيعية لأن أحكام الطبيعة فوق كل شيء، وهذه تعتبر خيانة ولو في مظهرها طاهر، وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها".

ومن هنا كانت البداية ومن ثمَّ تواصلا بالرسائل، كان كل منهما يسعى لرؤية ذاته في روح الآخر، وكلما قرأنا رسائلهما ازددنا يقينًا بأن الحب الذي شدَّ جبران إلى مي وشغف مي بجبران لهو حب عظيم، بل عشق يكاد يكون صوفيًّا لأنه تخطَّى حدود الزمان والمكان.

وبدأت الصلة بين جبران ومي تتوثَّق شيئًا فشيئًا لأن لهجته في مخاطبتها تدرَّجت من التحفُّظ إلى التودُّد، ومن الإعجاب إلى الصداقة القوية، ومن ثمَّ إلى حب عام 1919م.

ما إن بلغ الحب ذروته حتى تعكَّر بسلسلة من الخلافات بينهما، التي عبَّر عنها جبران مرة وقال: هي المعاكسات التي تحوِّل عسل القلب إلى مرارة.

وقال: إن الغريب حقًّا في هذه الصلة تأرجحها بين الحب الجامح والفتور، بين التفاهم التام الذي كان يضفي عليهما شفافية روحية تغمرهما بالسعادة، وبين سوء التفاهم الذي كان يؤلمهما ويؤدي إلى القطيعة أحيانًا ولكن شدَّة ولع كل منهما بالآخر كانت تدفعهما للتصالح مجددًا.

وبالرغم من كل هذا الحب كان كل منهما يخشى التصريح بعواطفه؛ فتارة يلجأ جبران للتلميح ويرمز إليها ويضع عبارات وصور مبتكرة وجميلة.

فلم ينادِ جبران مي قط بقوله: حبيبتي.. ولم يخاطبها باللغة المألوفه للعشاق، فعبر عن حبه بما هو أبلغ، عندما قال: "أنت تحيين فيَّ، وأنا أحيا فيكِ"، ووصف علاقته بها بأنها أصلب وأبقى بما لايقاس من الروابط الدموية والأخلاقية، وبعد أن باح لها بحبه رجاها أن تطعم النار رسالته إذا لم تجد لبوحه الصدى المرجو في نفسها.

وكانت مي في حياة جبران الصديقة، والحبيبة الملهمة، وصلة الوصل بينه وبين وطنه، وأكثر ما أحبه فيها عقلها المستنير الذي تجلّى في مقالاتها وكتبها، وأحب فيها حبها له، إعجابها بشخصيته، وعمله الأدبي والفني الذي كانت تتناوله بالتقريظ والنقد في مقالاتها في مصر.

وعلى الرغم من كل ما كتب عن علاقات جبران الغرامية من النساء مثل ماري هاسكل وميشلين، فإن حبه لمي كان الحب الوحيد الذي ملك قلبه وخياله ورافقه حتى نهاية حياته، فقد كان حبه لها معادلًا لحبه العارم لوطنه لبنان، وللدم العربي الذي يجري في عروقه، وهذا ما قاله في رسائل الشعلة الزرقاء.

ويميل المحللون للاعتقاد بأنه لم يكن يفكر في الزواج لاعتلال في صحته منذ شبابه، ومما لا شك فيه أن مي أحبّت جبران حبًّا جعل المقارنة بينه وبين الذين خطبوا ودَّها أمرًا مستحيلًا، برغم من تردُّد مي في الإعراب عن مشاعرها وخشيتها في الانطلاق على سجيتها في مراسلته، وذلك لأن جبران كان يعيش في عالم متطور تحرَّرت نساؤه من التقاليد، ومي كانت مغلولة القلب والقلم بتأثير البيئة الشرقية التي عاشت فيها، ورغم ذلك جعلت من بيتها صالونًا أدبيًّا يلتقي فيه كل ثلاثاء رجال الأدب والفكر.

لقد تمنَّى جبران أن تتحرر مي من عقدها النفسية وشكوكها الشرقية، فقد عانت مي صراعًا نفسيًّا حادًّا في حبها لجبران سبَّب لها الشقاء ولجبران العذاب والإرهاق.

ولم تتجاوز مي تلك الحواجز والهواجس إلا بعدما تمت الخامسة والثلاثين، إذ استجمعت شجاعتها وكتبت له أجمل رسالة حب يمكن أن تخطَّها امرأة لرجل، فقالت في إحدى رسائلها له:

"جبران..

لقد كتبت كل هذه الصفحات لأتحايد كلمة الحب، إن الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ينمِّي الحب في أعماقهم قوة ديناميكية رهيبة قد يغبطون الذين يوزِّعون عواطفهم في اللألأ السطحي لأنهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تنفجر، ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها، والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة، يفضلون أي غربة، وأي شقاء (وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب) على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة.

ما معنى هذا الذي أكتبه؟ إني لا أعرف ماذا أعني به! ولكني أعرف أنك (محبوبي) وأني أخاف الحب، أقول هذا مع علمي بأن القليل من الحب كثير.. الجفاف والقحط واللا شيء بالحب خير من النزر اليسير، كيف أجسر على الإفضاء إليك بهذا، وكيف أفرِّط فيه؟ لا أدري، الحمد لله أني أكتبه على ورق ولا أتلفَّظ به، لأنك لو كنت حاضرًا بالجسد لهربت خجلًا بعد هذا الكلام، ولاختفيتُ زمنًا طويلًا، فما أدعك تراني إلا بعد أن تنسى، حتى الكتابة ألوم نفسي عليها أحيانًا لأني بها حرة كل هذه الحرية.. قل لي ما إذا كنت على ضلال أو هدى.. فإني أثق بك، وأصدق بالبداهة كل ما تقول! وسواء كنت مخطئة فإن قلبي يسير إليك، وخير ما يفعل هو أن يظل حائمًا حواليك، يحرسك ويحنو عليك.

غابت الشمس وراء الأفق، ومن خلال الأشكال والألوان، حصحصت نجمة لامعة واحدة هي الزهرة، أترى يسكنها كأرضنا بشر يحبون ويتشوَّقون؟ ربما وجد فيها من هي مثلي، لها جبران واحد، تكتب إليه الآن والشفق يملأ الفضاء، وتعلم أن الظلام يخلف الشفق، وأن النور يتبع الظلام، وأن الليل سيخلف النهار، والنهار سيتبع الليل مراتٍ كثيرة قبل أن ترى الذي تحبه.. فتتسرَّب إليها كل وحشة الشفق،

وكل وحشة الليل، فتلقي القلم جانبًا لتحتمي من الوحشة في اسم واحد: جبران ".

مي زيادة

وضعت مي في تلك الرسالة كل مشاعرها تجاه جبران، عبَّرت عن حبها ولهفتها، عن خوفها ورهبتها، عن قلقها وشوقها واستنكارها لاستحالة اللقاء، ومن ثم استحالة وجود مستقبل لهذا الحب.

صورت مي في تلك الرسالة وجسَّدت روحها العاشقة، ما أثلج صدر جبران كثيرًا، وفرح لتجاوبها مع مشاعره النبيلة، ولقد عبَّر جبران عن ذلك في عدة رسائل.

ومنذ تلك اللحظة تحوَّلت رسائل جبران ومي لمدرسة عشق خالدة سيتحدث عنها الجميع على مرِّ الزمان، سيذيع سيط رسائلهما الغرامية عبر المعمورة كلها، وستتحدى حواجز الزمان والمكان لتمثل أيقونة أو تميمة ليس فقط للروعة الأدبية التي حوتها رسائلهما، وإنما وصفهما لأجمل مشاعر حبٍّ خالد سيبقى أسطورة، وستصير أيضًا نموذجًا لأدب فنِّ المراسلة يستحق القراءة والدراسة.

فسنجده هنا مثلا قد ردَّ جبران على رسالة مي.. بتلك الرسالة الرقيقة العميقة المعنى من جبران إلى مي.

"نيويورك 26 شباط 1924

يا مي عيدك يوم.. وأنت عيد الزمان.. انظري يا محبوبتي العذبة إلى قدس أقداس الحياة، عندما بلغت هذه الكلمة ((رفيقة)) ارتعش قلبي في صدري، فقمت ومشيت ذهابًا في هذه الغرفة كمن يبحث عن رفيقه. ما أغرب ما تفعله بنا كلمة واحدة في بعض الأحايين! وما أشبه

تلك الكلمة الواحدة برنين جرس الكنيسة عند الغروب! إنها تحوّل الذات الخفية فينا من الكلام إلى السكوت، ومن العمل إلى الصلاة.

ما أغرب ما تفعله كلمة واحدة في بعض الأحيان، إنها تحوّل الذات الخفية فينا من الكلام إلى السكوت.. تقولين إنك تخافين الحب! لماذا تخافينه؟ أتخافين نور الشمس؟ أتخافين مدَّ البحر؟ أتخافين طلوع الفجر؟ أتخافين مجيء الربيع؟ لماذا يا ترى تخافين الحب؟

أنا أعلم أن القليل في الحب لايرضيكِ، كما أعلم أن القليل في الحب لا يرضيني، أنتِ وأنا لا ولن نرضى بالقليل، نحن نريد الكمال.. الكثير، كلَّ شيء! لا تخافي الحب يا رفيقة قلبي، علينا أن نستسلم إليه رغم ما فيه من الألم والحنين والوحشة، ورغم ما فيه من الالتباس والحيرة".

وعندما قرأت مي تلك الرسالة ارتاحت لتلك اللهجة، وتشجعت على الإفضاء إليه بخوالج نفسها وهمومها.. فقد كان همها أن يبقى جبران حبيبها الأوحد لتدوم تلك الشعلة الزرقاء منهلًا للنعيم والنور في حياتها، وأضحت مي شديدة القلق على صحة جبران في سنوات عمره الأخيرة كما يبدو جليًا في رسائله إليها، وقد وصف جبران أسلوبها ورسائلها فقال إنها "كالنهر الرحيق الذي يتدفَّق من الأعالي ويسير مترنِّمًا في وادي أحلامي، بل كقيثارة التي تقرب البعيد وتبعد القريب، وتحول بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلات متَّقدة، والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة".

ويتبادر إلى الذهن هنا سؤال ملحٌّ.. هل كان أحد يعلم بكل هذا أم أن تلك المراسلات هي التي أفصحت لنا غن قصة عشق ربما كان سيطويها النسان لولا أن صرحت مي وأظهرت تلك الرسائل بعد وفاة جبران؟

ربما يكون أهل مي وبعض المقربين منها قد اطلعوا على صلتها بجبران في حياتها، ولكن المرجَّح أنها كانت حريصة على إخفائها عن الناس جميعًا، وأبقتها سرًّا دفينًا في نفسها حتى ذلك اليوم الذي فُجعت بموته عام 1931م، فبعد انقضاء شهر على وفاته اعترفت ميّ لقرائها بوجود مراسلة طويلة بينها وبين جبران، وذلك في مقالة (جبران خليل جبران يصف نفسه في رسائله) ضمَّنتها فقرات قصيره من رسائله إليها، وعبَّرت عن حزنها العميق عليه مصوِّرة غربتها وغربته في الوجود بعبارات موجعة قالت فيها:

"... حسنًا فعلت بأن رحلت! فإذا كان لديك كلمة أخرى فخير لك أن تصهرها وتثقفها، وتطهرها لتستوفيها في عالم ربما يفضل عالمنا هذا في أمور شتَّى".

وفي ختام ذلك المقال المؤثِّر الفائض بالحب واللوعه واليأس، أعربت مي عن شوقها للرحيل، ولكن مشيئة القدر فرضت عليها أن تعيش بعد جبران عشر سنوات تقريبًا كانت أسوأ مرحلة في حياتها.

فقد استبدَّ بها الحزن، وعاشت في غمرة الأحزان تمزقها الوحدة، وأصيبت بانهيار عصبي، تبعه انهيار في صحتها، فاعتزلت الناس، ولقد أرسلت في تلك الفترة إلى قريب لها في بيروت دكتور يدعى جوزيف زيادة رسالة مؤثرة وصفت آلامها واعتلال صحتها، وبسبب تلك الرسالة تم إرسالها إلى لبنان - موطنها الأصلي - وأدخلت إلى مصحة الأمراض العقلية ما طعنها في كرامتها، وقضت ثلاث سنوات متنقلة بين (العصفورية) كما يسمونه، ومصح دكتور بيريز، وبين بيت متواضع، إلى أن هبَّ أقاربها لإنقاذها، وعادت إلى القاهرة، وعاشت بعدها سنتين ونصف، ثم ذوت شيئًا فشيئًا وتوفيت عام 1941م.

وجدير بالذكر، أن مي عندما كانت في لبنان حملت رسائل جبران معها، وكانت تلجأ إليها على انفراد، حين يشفُّها الوجد، وصورة لجبران، كتبت بخطها إلى جانب الصورة:

"وهذه مصيبتي منذ أعوام".

وهكذا دام حب مي وجبران نحو العشرين عامًا دون أن يلتقيا! دام واستمرَّ في مراسلاتهما الأدبية التي كانت في البداية رسائل لتبادل الأفكار بين صديقين يجمعهما فكر واحد واهتمامات واحدة، وسرعان ما تحولت لنصح وإرشاد، ثم لهفة وحب، حتى صارت مراسلاتهما أيقونة الحب في كل زمان ومكان.

حب نشأ بين امرأة في مشارق الأرض ورجل في مغاربها.

كان حب مي وجبران حب فريد لا مثيل له في تاريخ الأدب، أو في سير العشاق، مثال للحب النادر المتجرِّد عن كل ما هو مادي وسطحي.